

تصدير عام

غيرُ مجدٍ في ملَّتِي واعتقادي إهمال الدور الرائد الذي قام به مجموعة من المفكرين والأدباء ، الذين أثروا حياتنا الفكرية والأدبية ثراءً منقطع النظير . لا يصح أن نقول إننا جيل بلا أساتذة فننكر دور من سبقونا الذين شقوا طريقهم وسط الأشواك والصخور وكانت الأرض بالنسبة لهم ليست سهلة ممهدة ، بل كان لهم من الأعداء أضعاف ما لهم من الأصدقاء ومن محبي البحث عن الحقيقة والاعتراف بالفضل لأهله .

لا خير فينا نحن العرب إذا لم نعترف بفضل من سبقونا . وإذا توصلّ اللاحقون إلى نتائج أكثر دقة من السابقين ، فإن الفضل الأكبر إنما يرجع إلى السابقين أكثر بكثير مما نجده عند اللاحقين .

وأذكر أن كلود برنار في كتابه « مدخل إلى دراسة الطب التجريبي » قد أشار إلى أن اللاحقين يجب أن يتذكروا باستمرار أنهم لم يتسنَّ لهم التوصل إلى نوع من التقدم الأفضل إلا بفضل السابقين . وذكر مثلاً واضحاً هو أن الطفل إذا صعد فوق كتفى أمه ، فإنه يرى مدى من الرؤية أوسع مما تراه الأم ، لأنه يرى من أعلى ، ولكن لا بد أن يتذكر الطفل أنه لولا صعوده فوق كتفى أمه لما استطاع التوصل إلى المدى الواسع من الرؤية . مثال اعتبره غاية في العمق والثناء .

والشيخ الإمام محمد عبده ، لأنه - أولاً وأخيراً - يعد فرداً من أفراد البشر ، فلا بد أن يقع في بعض الأخطاء سواء من حيث المنهج ، أو الآراء التي قال بها . إنه لم يكن قديساً . ثم إن الحقيقة الكاملة تعد عسيرة المنال ، أو مستحيلة ،

فكيف ننتظر - إذن - من فرد من أفراد البشر - حتى لو كان رائداً من الرواد، أو مصلحاً من المصلحين ، أو مفكراً من المفكرين - أن يتوصل إلى الحقيقة الكاملة .

ثم أين هى الحقيقة الكاملة ونحن البشر بطبيعتنا الوصول إلى الصواب تارة والوقوع فى الأخطاء تارة أخرى ؟ !

واجب علينا - إذن - الاعتراف بفضل السابقين ، وإلا سنكون كالقطة التى تأكل أولادها . لقد قام السابقون بالجهد ، والجهد الكبير للتوصل إلى الحقيقة من منطلق حبهم لمصر والعروبة والإنسانية فى كل زمان ومكان . فمن واجبنا - إذن - أن نبادلهم حباً بحب وعطاءً بعطاء ؛ وإلا سنكون كالذئب ، أو أضل منهم سبيلاً .

ولكن ماذا نفعل أمام ثقافة الجهال وأهل الظلام ؛ من أنصاف المفكرين وأشباه الدارسين والذين تعد أفكارهم ظلاماً فى ظلام - وإن كان أكثرهم لا يعلمون - سواء منهم من رحل عن دنيانا ، أو مازال باقياً على قيد الحياة .

لقد قال الشيخ محمد عبده بما قال به ، وكتب ما يعتقد أنه الصواب ؛ فمن واجبنا - إذن - دراسة أفكاره ومناقشة آرائه . ويقىنى أن الدارس والقارئ لأفكاره سيجد فيها الكثير من الخير والصواب فى مجال خدمة الحضارة والإنسانية .

أما إذا قمنا بإهمال آرائه تارة ، وإعلان الحرب على رأى أو أكثر من آرائه دون دراسة متأنية لكل آرائه ، فإن هذا هو الشر المطلق والكارثة الكبرى والتى لا نجدها إلا فى دولنا العربية للأسف الشديد . وليرجع القارئ إلى الفصل الذى تحدثنا فيه بإيجاز عن أثره فى عالمنا العربى بصفة خاصة، وسوف يجد أن الإنصاف للشيخ محمد عبده كان من جانب الغربيين أضعاف ما وجدناه عند العرب !!!

ثم إننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن الفكر لا يُحَارَب إلا بالفكر ، أما أن نلجأ إلى المنع والتحریم والتكفير والضرب تحت الحزام كما يفعل الأشباه والأنصاف وأنصار محاكم التفتيش ، فإن هذا لا يدلنا إلا على الإفلاس الفكري والتخلف العقلي من جانبهم والعياذ بالله . وكم عانى عالمنا العربي من مؤامرات هؤلاء المتخلفين وضعاف العقول والذين هم على درجة دنيا من الذكاء . وكاتب هذه الصفحات قد لحقت به المآسى والشور من جانب هؤلاء الأوغاد وسفاكى الدماء ، فقد قُدِّر له أن يكون أول أستاذ للفلسفة في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر ، يتم تقديمه لمحكمة الجنايات وذلك في الخامس عشر من شهر مايو عام ١٩٩٥ م . وهذه الحادثة المؤسفة^(١) والتي أدت بى إلى أن أكون مهمشاً ومكروهاً حتى الآن في مصر وأكثر البلدان العربية ، كانت لها صلة - كما سنرى - بآراء الشيخ محمد عبده .

ولابد أن أذكر للقارئ الكريم أن أول صلة لى بآراء الشيخ محمد عبده كانت منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، فقد كنت حريصاً على حضور ندوات مفكرنا الكبير عباس محمود العقاد في صالونه الشهير « صالون العقاد » ، وأذكر أنه أشاد أكثر من مرة بآراء شيخين من المشايخ المصريين ، هما الشيخ محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت .

كان هذا ، كما قلت ، منذ أكثر من خمسين عاماً ، وعلى وجه التحديد عام ١٩٥٤م وبعد التحاقى بقسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول (وتسمى حالياً جامعة القاهرة) ومن هنا ، وفي ذلك الوقت بدأ اهتمامى بالتعرف على أفكار الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت ، وقد ركزت أكثر على آراء الشيخ محمد عبده ويرجع ذلك إلى أن الدكتور عثمان أمين - وهو من هو في مجال الفلسفة - كان يقوم بتدريس آراء الشيخ محمد عبده في مقرر الفلسفة

(١) سيجد القارئ جزءاً يسيراً من هذا الموضوع أو هذه المحنة في كتابنا « العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر » . أما كل أبعاد المحاكمة فإننى أعد لها كتاباً مستقلاً أرجو أن أنهى منه إذا كان في العمر بقية .

الحديثة والمعاصرة ، وخاصة أنه كان يرى أن الشيخ محمد عبده كان فيلسوفاً .

ثم استمرت اهتماماتنا كطلاب للفلسفة بالشيخ محمد عبده ، وخاصة أن الدكتور زكي نجيب محمود - وكنا نطلق عليه أستاذ الأساتذة - كنا نسأله : هل الشيخ محمد عبده يعد فيلسوفاً ؟ فكان يقول لنا إنه لا يعد فيلسوفاً لأن شرط الفيلسوف أن يكون صاحب منهج يختلف عن منهج السابقين عليه ، فلو كان أرسطو تلميذ أفلاطون في الأكاديمية قد تابع أستاذه في منهجه ، لما كان فيلسوفاً . ووجهة النظر هذه التي قال بها الدكتور زكي نجيب محمود كنت أتفق معه فيها وأختلف مع أستاذي الدكتور عثمان أمين حين قال بأن الشيخ محمد عبده يعد فيلسوفاً .

ثم استمر اهتمامي بالشيخ محمد عبده رغم أنني كنت أختلف معه في كثير من آرائه لإيماني بالعقلانية المطلقة ، وسبب هذا الاهتمام كان راجعاً إلى أنني في زياراتي المتكررة - التي لا حصر لها - لأستاذي المفكر الكبير زكي نجيب محمود في منزله بالجيزة ، كنت أتناقش معه حول تيار من التيارات الفكرية الثلاثة ، وأعني به تيار الأصالة والمعاصرة ، وهو يعد تياراً من تيارات ثلاثة ، أما التيار الأول فإنه يمثل الوقوف عند التراث وعدم تجاوزه في كل صغيرة وكبيرة . والتيار الثاني على نقيض التيار الأول ، يمثل الغرب ، والغرب فقط ، بحيث تكون الثقافة الأوربية هي المعيار . وكنت أقول لأستاذي إن الشيخ محمد عبده يمثل التيار الثالث ، تيار الأصالة والمعاصرة ، إلا أنني كنت ألاحظ على أستاذي بعض التحفظ بالنسبة لهذا الرأي ، لأنه كان يعتبر الشيخ محمد عبده أقرب إلى التيار الأول (تيار التراث) ، ولكن زكي نجيب محمود - بوجه عام - كان لا يقلل من أهمية الشيخ محمد عبده في الكثير من آرائه المهمة والتي تمثل دفعة تنويرية ، وخاصة في عصره .

وتدور الأيام دورتها ، فيطلب مني كتابة دراسة نقدية مطوّلة لكتاب من كتب الشيخ محمد عبده ، هو كتاب « الإسلام دين العلم والمدنية » ، وقد

صدرت للدراسة ونص الكتاب أربع طبعات حتى الآن . وكنت قبل كتابة هذه الدراسة النقدية قد كتبت عنه دراسات موجزة وأشارت إليه في العديد من كتبي ومن بينها « ثورة العقل في الفلسفة العربية » وخاصة حين فرقت بين الثورة من الخارج ، والثورة من الداخل . وقلت إن الشيخ محمد عبده يمثل ما أطلق عليه « الثورة من الداخل » ، أى : داخل التراث ، لأنه سعى إلى التجديد ، تجديد الفكر الدينى ، ولم يكن رافضاً للتراث كله جملة وتفصيلاً (الثورة من الخارج) ، فالتجديد يمثل الثورة من الداخل Reconstruction لأنه إعادة بناء وليس هدم المعبد على من فيه .

وقد أشرت إلى ذلك أيضاً في كتب أخرى لى ، من بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر : كتاب « العقل والتنوير في الفكر العربى المعاصر » وكتاب « ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة » .

وقد فكر المجلس الأعلى للثقافة في إقامة مؤتمر عالمى ضخيم عن الشيخ محمد عبده اعترافاً بمكانته الكبرى ، وتم اختيارى مقررأ لهذا المؤتمر العالمى الضخم ، فكانت مناسبة لإصدار مجموعة من الكتب والدراسات له وعنه . فتم تكليفى بالإشراف على مجلد تذكارى ضخيم عن الشيخ محمد عبده ، وقد تم إصدار هذا المجلد منذ حوالى عشر سنوات وشارك فيه باحثون كثيرون .

كما طلب منى المجلس الأعلى للثقافة كتابة تصدير لرسالة مهمة من رسائل أو كتب الشيخ محمد عبده ، وأعنى بها «رسالة التوحيد» ، وقد صدرت الطبعة الجديدة مع تصدير لها في نفس العام الذى صدرت فيه طبعة جديدة من كتاب مهم جداً عن الشيخ محمد عبده ، وأعنى به كتاب « رائد الفكر المصرى الشيخ محمد عبده » للدكتور عثمان أمين ، والذى كان يشير إليه باستمرار فى محاضراته لنا بكلية الآداب ، وقد صدرت طبعته الجديدة بتصدير لى ، طلبه منى المجلس الأعلى للثقافة بمصر .

وأيضاً تدور الأيام دورتها ويأتى عام ٢٠٠٥م وهو العام الذى يوافق مرور قرن من الزمان على وفاة الشيخ محمد عبده ، ومولد زكى نجيب محمود ، ومولد يحيى حقى الأديب ، ومولد أستاذى ومعلمى الأب جورج شحاتة قنواتى والذى كان مديراً لمعهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينيكان بالقاهرة حتى وفاته ، كما كان خير سفير لمصر فى أرجاء العالم شرقاً وغرباً ، وإن كان أكثرهم لايعلمون .

وأذكر أننى كتبت مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات عن الشيخ محمد عبده ، وخاصة فى مناسبة مرور قرن من الزمان على وفاته ، وأذكر منها ما نشر فى مجلة « عالم الفكر » بالكويت ، عن دور الفكر المستنير فى معركة الحرية ، وتتضمن جزءاً عن الشيخ محمد عبده ، ومقالة مطوّلة نشرت بمجلة « أدب ونقد » التى تصدر فى مصر ، ومقالة بمجلة « أون » التى تصدرها جامعة عين شمس ... إلى آخر المقالات التى تناولت كل مقالة أو دراسة منها جانباً من جوانب حياة وفكر الشيخ محمد عبده ، وما أكثرها وما أعظمها .

أما الاحتفالات بالشيخ محمد عبده فى مناسبة ذكره المثوية ، سواء داخل مصر التى ولد فيها ، أو فى عالمنا العربى الذى أضاءه الشيخ الإمام محمد عبده بأفكاره الثرية ورؤيته الإصلاحية ، فإننا نأسف أشد الأسف على أنها جاءت احتفالات هزيلة تافهة تحدّث فيها أناس كان من بينهم من لم يتعرف على أفكار الشيخ محمد عبده من قريب أو من بعيد ، وقد حضروا للحديث عنه من منطلق الشللية البغيضة التى أفسدت علينا حياتنا الثقافية فى أرجاء العالم العربى كله . إنهم يمثلون أشباه المثقفين وأنصاف الباحثين والذين جعلوا حياتنا سواداً فى سواد ، ونجدهم يتكلمون فى أى مجال ، دون فهم من جانبهم لأى مجال من مجالات حياتنا الفكرية والثقافية ، وتمثل أفكارهم ظلاماً فى ظلام وجهلاً على جهل ، وإن كان أكثرهم لايعلمون .

ونستثنى من هذه الاحتفالات الهزيلة احتفالاً ضخماً رائعاً أقامته الجمعية

الخيرية الإسلامية بجامعة الأزهر داخل القاعة التي يطلق عليها اسم الإمام ،
قاعة أو مدرّج الشيخ محمد عبده . وقد قامت الجمعية الخيرية بالإعداد لهذه
الاحتفالية لمدة شهور طويلة ، وأصدرت عنه كتاباً يتضمن كل وقائع
الاحتفالية . وقد أدركت الجمعية الخيرية الإسلامية أن واجبها يقتضى ذلك ،
إذ لا يمكن أن تُذكر الجمعية الخيرية الإسلامية إلا ونذكر الشيخ محمد عبده
وأفكاره الأولى التي كانت نواة لإنشاء الجمعية ونشاطها .

وإذا كان محور كتابنا الذى نقدمه اليوم للقارئ الكريم يدور حول قضايا
النور والتنوير ، فإن من أسباب ذلك أن الشيخ محمد عبده قد دعانا إلى فكرة
محورية هي فكرة الحرية ، وذلك من خلال نقده للسلطة الدينية ، ونعتقد من
جانبا أنه لا تنوير بدون حرية ، ولا حرية بدون تنوير ، وللحرية صور عديدة
ولا حصر لها ، سواء ظهرت فى جوانب فكرية أو جوانب عملية إصلاحية
تطبيقية . وكم أسأنا إلى فهمنا للحرية ، سواء فى أبعادها النظرية أو أبعادها
التطبيقية . فإنا أيتها الحرية كم أسأنا إليك !! وقد آن الأوان لإعادة النظر فى
الحرية والتحرر . فكم من الجرائم والنكبات والكوارث قد ارتكبت باسم هذا
المفهوم وهذا المسمى ، رغم أن الحرية فى حد ذاتها بريئة تماماً من النتائج التى
حدثت نتيجة الفهم الخاطئ عن قصد أو عن غير قصد لهذا المفهوم ، مفهوم
الحرية ، حتى جاوز الظالمون المدى وبرّروا أفعالهم باسم الحرية .

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن موضوع الحرية والتحرر يعد على جانب كبير
من الأهمية وخاصة فى العصر الذى نعيش فيه . إنه قضية الساعة وكل ساعة .
إنه مطلب حيوى بنّاء وخاصة بالنسبة لدول العالم الثالث . إنه قضية مصير ،
قضية حياة أو موت ، قضية أن أكون أو لا أكون . نقول هذا ولا بد من القول به
ما دما نجد على أرضنا العربية من يفسد فيها ، وينظر لفكرة الحرية نظرة
هامشية .

وإذا كانت الدول الأوروبية عامة ، وأمريكا أيضاً قد استطاعت بلورة أكثر

الأفكار التى تدور حول الحرية والديمقراطية والتحرر وحقوق الإنسان ، إلا أننا فى عالمنا العربى ما زلنا نجد مفهوم الحرية وما يتعلق به من مفهومات وقضايا ومشكلات سواء على المستوى النظرى أو المستوى العملى من أكثر المفهومات غموضاً والتباساً .

إن موضوع الحرية - والحرية الفكرية على وجه الخصوص - يرتبط ارتباطاً رئيسياً بالدعوة إلى احترام حقوق الإنسان ، إنه يعد مطلباً رئيسياً تماماً كما نقول بحق الإنسان فى الحياة ، بحيث لا نتصور وجوداً للإنسان إلا بأن يكون له الحق فى التعبير عن رأيه ، وبالتالي حق الآخرين فى التعبير عن آرائهم سواء اتفقوا معه أو اختلفوا .

ومن الواضح أن موضوع «الحرية الفكرية» يرتبط بالعديد من الزوايا والمجالات والأبعاد ، من بينها القانون الدولى والأمن والتنمية الاقتصادية وتطور النظام السياسى وحقوق الإنسان كمثال أعلى قانونى ، ومستقبل حقوق الإنسان فى السياسات الدولية ... إلى آخر هذه الزوايا والأبعاد .

إن موضوع «الحرية الفكرية» لا يعد تعبيراً عن طابع محلى إقليمى ، بل إنه يعد معبراً عن دعوة عالمية ، وإذا لم تشارك كل الدول فى دراسة أبعاد الحرية الفكرية من حيث ارتباطها باحترام حقوق الإنسان ، فلن تتحقق الحرية الفكرية فى أعلى مستوياتها .

ودليلنا على ذلك أن دولاً لا نجد لديها إيماناً بحق الأفراد فى الحرية الفكرية والتعبير عن آرائهم ، قد تشكّل خطراً على دول أخرى نجد فيها التزاماً وتطبيقاً للحرية الفكرية . وهذا ما قد يؤدى بالدول التى نجد فيها حرية فكرية إلى التدخل فى شؤون دول أخرى تعد فى نظرها غير مدافعة عن الحرية الفكرية ، بحيث تضرب عرض الحائط بكل أبعاد وصور الحرية الفكرية ، وخاصة إذا كانت تملك الأموال التى عن طريقها تؤثر فى إيجاد قيود على كل صور الحرية الفكرية .

لابد - إذن - من إيجاد مجموعة من القواعد لكل الدول وكل الشعوب بحيث توجد معاملة مشتركة عالمية لكل الأشخاص على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم والدول التي ينتمون إليها ، وبدون ذلك لن نجد ربطاً بين الحرية الفكرية من جهة والدعوة إلى احترام حقوق الإنسان من جهة أخرى ، وهذا ما نجده سواء من قريب أو من بعيد في أفكار وآراء واتجاهات الشيخ محمد عبده .

وإذا ركزنا على عالمنا العربي بصفة خاصة ، فإننا نستطيع القول بأننا لانتصور رؤية مستقبلية للحرية الفكرية من حيث ارتباطها بحقوق الإنسان ، إلا بالسعى بكل ما نملك من قوة نحو تقديس العقل والمعقول والتمسك بثقافة النور والتنوير . ومن المؤسف أن الفكر التنويري العربي - وخاصة ما ارتبط منه بموضوع الحرية الفكرية وموضوع حقوق الإنسان والذي ازدهر إلى درجة كبيرة خلال فترات طويلة من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين - يحدث له الآن نوع من التراجع خاصة بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، بل يتعرض للهجوم من جانب أنصار الظلام والرجعية والإرهاب والكتب الصفراء . إن الحرية الفكرية - كما سبق أن أشرنا - إنها ترتبط بالحياة والوجود . أما الظلام فإنه يرتبط بالعدم والفناء . ولا أحد منا يملك ذرة من عقل يرتضى لنفسه حياة الظلام ، وإلا كان من مملكة الخفافيش التي تفضل الظلام والأماكن المهجورة .

بل نجد الكثير من المعوقات التي تقف عقبة في طريق تحقيق الحرية الفكرية من خلال علاقتها بحقوق الإنسان . ومن الملاحظ أن أكثر هذه المعوقات نجدها آتية من أنصار الإرهاب والجمود ، أي : الفكر الذي يعد معبراً عن قهر الرأي الآخر . ودليلنا على ذلك أننا قد نجد المعبرين عن هذا النوع من الفكر الزائف - فكر الإرهاب - من أكثر الناس حرصاً على الدعوة إلى إلغاء الحرية الفكرية وإعلان الحرب على حقوق الإنسان . ولو كنا قد وضعنا نصب أعيننا أفكار الشيخ محمد عبده لكان الحال قد أصبح غير الحال .

نعم نجد ذلك واضحاً في كتاباتهم التي تحمل طابع الهجوم على الحضارة الغربية التي لم يعلن الحرب عليها الشيخ محمد عبده - تلك الحضارة التي تمثل فيما نرى أعظم أنواع الحضارات الإنسانية - ومحاربة التنوير كما يفعل بعض رجال أو جنود الإرهاب الفكرى أو أنصار محاكم التفتيش ، والقول من جانبهم بأن الحل هو التراث .. وكلها دعوات تعد - كما قلنا - في ظاهرها وباطنها معبرة عن رفض الحرية الفكرية وإلغاء كل صور حقوق الإنسان . نقول هذا ونؤكد على القول به ، خاصة أن كاتب هذه الصفحات - وكما أشرنا في بداية تصديرنا - قد قُدِّرَ له أن يقف متهماً أمام محكمة الجنايات منذ عدة سنوات ، وعلى وجه التحديد في الخامس عشر من شهر مايو عام ١٩٩٥ م . ونود أن نؤكد على أن تحقيق الحرية الفكرية مستقبلاً من حيث ارتباطها بالدعوة العالمية إلى احترام حقوق الإنسان ، لا يكون من جانب الدول فحسب ، بل أيضاً من جانب المثقفين . فهل أدى المثقفون واجبه في مجال الدفاع عن الحرية الفكرية ؟ كلاً ثم كلاً ، فقد نجد محاربة للحرية الفكرية من جانب المثقفين أكثر ضراوة مما نجده من جانب أنظمة الدول التي ينتمون إليها ، بحيث أصبحنا في مجال الثقافة - كما قال توفيق الحكيم - ننتمي إلى عالم الصراصير وليس عالم النمل والنحل ، فعالم الصراصير يعد تعبيراً عن التنازع والأناثية ، أما عالم النمل والنحل فإنه يعد معبراً - على العكس - عن التعاون والتآلف والغيرية .

ودليلنا على ذلك أننا في عالمنا العربى بصفة خاصة قد نجد حرباً على الحرية الفكرية وحقوق الإنسان من جانب المثقفين أنفسهم ، وكم وجدنا آلاف الأوراق عند هؤلاء تعد معبرة عن القهر والدفاع عن الديكتاتورية في مجال الفكر بصفة خاصة ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون . وهل يمكن أن ننسى قيام بعض أشباه المفكرين وأشباه المثقفين بالتمجيد لهذا الطاغية أو ذلك من الطغاة الذين فرضوا أنفسهم فرضاً على شعوبهم ؟

وبوجه عام فإنه يمكننا القول بأن موضوع الحرية الفكرية من خلال ارتباطه

بالدعوة العالمية لاحترام حقوق الإنسان ، قد نجد له بعض الجوانب المشرقة ، ومن خلال صور ومجالات شتى ، ليس فقط من خلال الشيخ محمد عبده ، بل نجده عند أمثال رفاة الطهطاوى وعبد الرحمن الكواكبي (الإصلاح الفلسفى التنويرى) وقاسم أمين (قضايا المرأة) ومصطفى عبد الرازق (الفكر الفلسفى التنويرى) وأحمد لطفى السيد (الثقافة الإنسانية العالمية) وطه حسين (رائد التنوير فى عالمنا العربى المعاصر) وتوفيق الحكيم (المنظور العلمانى التنويرى) ومحمد عزيز الحبابى (الرؤية الحضارية الثقافية) وزكى نجيب محمود (الرؤية العقلية المستقبلية) إلى آخر هذه النماذج والصور^(١).

وإذا كان عالمنا العربى - بوجه عام - قد باعد بين نفسه وبين تحقيق الحرية الفكرية، من حيث ارتباطها بالدعوة العالمية لاحترام حقوق الإنسان ، فترات طويلة من الزمان ، فإن تحقيق ذلك قد أصبح الآن شيئاً صعباً ، لكن لابد من تحقيقه وأن نقطع فيه خطوات وخطوات ، لأنه - كما سبق أن أشرنا - قضية الساعة ، قضية أن نكون أو لا نكون .

وقد كثر فى الآونة الأخيرة الحديث عن الديمقراطية وضرورة تحقيقها فى دول العالم العربى . ومن الغريب بل ومن المؤسف أن تقوم أمريكا وبعض الدول العربية بالتأكيد على أن خلاص العالم العربى إنما يتمثل فى ضرورة تطبيق الصورة الأمريكية للديمقراطية . نجد هذا فى العديد من الكتابات وفى الكثير من وسائل الإعلام ومن بينها القنوات الفضائية ، لدرجة أننا نجد قناة فضائية تقوم أمريكا بتمويلها وتشجيعها إلى أكبر درجة ، نجد هذه القناة تبين لنا أن الديمقراطية بالصورة الأمريكية إنما تمثل الفردوس المفقود واللجنة التى لابد أن نلجأ إليها وذلك إذا أردنا حياتنا أن تكون صورتها أفضل من الحياة الحاضرة والحياة الماضية .

(١) راجع مقالنا عن دور الفكر المستنير فى معركة الحرية (مجلة عالم الفكر بالكويت) وكتابنا : العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر (القسم الأول) .

ومن المؤسف أننا نجد نفرأ من بيننا يقوم بتشجيع وتأييد ما يقال عن دعوة أمريكا للديمقراطية دون أن يضع في اعتباره عدة أمور رئيسية من بينها التجاهل التام لتاريخنا الحضارى والثقافى ، ليس بالنسبة للتاريخ العربى القديم فحسب ، بل تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بالإضافة إلى أنه من المعروف أن مذهباً أو اتجاهأ ما لن يُقدَّر له الاستمرار إلا إذا استند إلى جذور من داخلنا نحن ، وإذا لم نفعل ذلك فسنكون كمن يضع البذور فى غير أرضها .

حلّلوا ما شئتم أبعاد تاريخنا فى الماضى ؛ ستجدوا أننا نجد فى هذا التاريخ العديد من الأفكار والآراء والمذاهب التى تعد معبرة عن الديمقراطية بصورة أو بأخرى ، وإذا وجدنا عيبأ أو تقصيراً فإن العيب ليس فى تلك الأفكار المعبرة عن الديمقراطية ، والتى هى راسخة فى تاريخنا ، بل العيب فى الفهم الخاطئ من جانبنا نحن لهذه الفكرة أو تلك ، بالإضافة إلى تطبيقاتنا الخاطئة .

ومن المعروف أن الديمقراطية لا تُفرض بقرار أو مجموعة من القرارات ، وخاصة إذا كانت قرارات من الخارج وليست نابعة من الداخل .

ومن المعروف أيضاً أن الثقافات التى يُقدَّر لها الاستمرار والنمو والازدهار إنما هى الثقافات التى تبدأ بجذور داخلية . وخصائص أى شعب ليست بالضرورة تعد مطابقة لخصائص شعب آخر . وهل إذا ارتدى العربى الرداء الأمريكى فإنه سيصبح بالضرورة أمريكياً ؟ أين التراث ؟ أين الهوية ؟ أين ثقافة آلاف السنين ؟ أين الآمال والآلام المشتركة التى وحّدت العرب وجعلتهم فى بوتقة واحدة بحيث نقول كما قال القائل :

هذه آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار ؟!

حذارٍ من إغفال تاريخنا العربى ، وأمة ترضى لنفسها أن تترك تاريخها المزدهر المشرق تكون كما قال طه حسين وزكى نجيب محمود كنصف إنسان ، ولا أحد يرتضى لنفسه أن يكون نصف إنسان .

إنه واجب مقدس على كل مهتم بالثقافة من قريب أو من بعيد : إبراز أهمية أن تكون الديمقراطية نابعة منا نحن ، وليس عن طريق قرار من الخارج . ويقىنى أن هذا الواجب يعد فى مقدمة واجباتنا الحوية والمهمة . وإذا حدث تقصير فإننا لابد أن تكون لدينا الشجاعة لكى نقول إننا نتحمل مسؤولية ما حدث ، أين الأيديولوجية العربية المشتركة ؟ أين المشروع الثقافى والحضارى الذى يجب أن يعبر عنه كل مثقفى الأمة العربية من مشرقها إلى مغربها ؟ أين فهمنا العميق واستفادتنا من أفكار الشيخ محمد عبده ؟ يجب أن نضع فى اعتبارنا أننا نعيش فى عصر يحتاج إلى تضافر الجهود نحو إرساء معالم الحرية من داخلنا نحن ، من تاريخنا بحيث يكون شعارنا جميعاً أن من ليس له تاريخ فلا حاضر له ولا مستقبل . إنه سيصبح كالهنود الحمر ، ذكرى .. مجرد ذكرى . هل اهتم مفكرون ومثقفونا بدراسة تاريخنا الحضارى والثقافى وماتعلق منه بالديمقراطية والحرية والتحرر والقيم الكبرى الخلقة ؟

إن دستوراً فكرياً وثقافياً للأمة العربية وخاصة فى هذا المجال ، مجال الديمقراطية والحرية لا يمكن أن يتحقق إلا بمشروع متكامل يتفق المثقفون والمفكرون العرب على ضرورة إرسائه عن طريق الكتابات الصحفية وغيرها والبرامج الإذاعية والقنوات التليفزيونية وما أكثرها ، والكتب والمؤلفات ؛ بحيث لا نجد صوتاً يعلو فوق صوت هذا المشروع الداخلى الذى يقدر الحرية. إنه مشروع الساعة وكل ساعة ، فلنبادر إلى التعبير والسعى نحو تحقيقه. لا يكفى أن نكون مجرد متفرجين بل لابد من السعى الدءوب . إن من يجلس على الهامش - أى : فى الفناء - فإن مصيره سيكون الفناء . وما أكثر المجالات التى من خلالها نستطيع السعى نحو الأيديولوجية العربية المشتركة فى مجال الديمقراطية . ومن أوجب واجباتنا التوحد وليس التفرق ، الائتلاف وليس الاختلاف ، التعاون وليس الصراع والنزاع ، وإذا لم نفعل ذلك فإننا سنكون جديرين بالفناء .

ارجعوا أيها السادة إلى أكثر جوانب تاريخنا الحضارى والثقافى ؛ ستجدوا
صوراً لا حصر لها تعد معبرة عن الديمقراطية ليس فى مجال السياسة فحسب ،
بل فى مجالات ثقافية وحضارية لا حصر لها ، وإلا كيف نفسر وجود مئات
الأفكار الجريئة والحية والتي انتشرت فى عصر من العصور كالعصر العباسى .
هل يمكن لهذه الأفكار أن تنتشر إلا إذا كانت البيئة ممهدة لها ومساعدة على
انتشارها ؟ وهل استفدنا حقيقة من فتاوى الشيخ محمد عبده ؟

وإذا كانت شخصية الإنسان أى إنسان إنما تكونها بالدرجة الأولى البذور
والجذور الداخلية ، فهل من المعقول أن نتصور وجود نفس الإنسان فى حالة
ارتعائه فى أحضان أفكار وآراء ليست نابعة من داخله أو من تاريخه الحضارى .
إنه سيكون كمن يفقد الذاكرة . سيكون بلا تاريخ والعياذ بالله .

ونود أن نؤكد من جانبنا على أن فكرة التنوير فى مجال الثقافة السياسية تعد
من أبرز الأفكار ، خاصة إذا ركزنا على الثقافة السياسية فى عالمنا العربى من
منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حتى الآن .

فإذا كنا نقول إن الإنسان يعد حيواناً سياسياً فى المقام الأول ، فإن هذا يعنى
أن العديد من الجوانب والمجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية إنما تتبلور
حول هذه الدائرة السياسية بوجه عام ، أى : المحور السياسى . وإذا لم يكن
الشيخ محمد عبده قد اهتم بالسياسة العملية ، إلا أننا نجد لديه العديد من
الأفكار فى المجال النظرى والفكرى بالنسبة للحرية .

إن فكرة التنوير تدخل فى إطارها دراسة العديد من القضايا والمشكلات التى
تدور حول طبيعة العلاقة بين الدين والدولة ، وهل يوجد ما يسمى بالإسلام
السياسى ؟ وهل نخلط بين الدين والدولة ؟

ومن القضايا والمشكلات الأخرى علاقة العرب بالدول الغربية بوجه عام
وأمرىكا بوجه خاص ، وهل يمكن تحقيق العلمانية ؟ وهل يوجد ما يسمى
بالغزو الفكرى فى جانبه السياسى على وجه الخصوص ؟ وما موقفنا من مشكلة

الأصالة والمعاصرة ، أى : القديم والجديد ، أى : العناصر التراثية والعناصر الغربية ، وخاصة في المجال السياسي والفكرى ؟

وفكرة التنوير ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث التي نراها الآن ، ومن بينها محاولة ضرب الوحدة الوطنية والتطرف والإرهاب ، إذ أن هذه المجالات كلها يمكن بحثها ودراستها من خلال فكرة التنوير من منظورها السياسي . ويقيني أن بعض أفكار الشيخ محمد عبده ستساعدنا على إيجاد حلول لهذه المشكلات . وهل يوجد ما يسمى بغزو ثقافي فعلاً أم أن هذا يعد وهماً وليس حقيقة ؟ وكيف يمكن بناء الإنسان العربي على ضوء فكرة التنوير ؟

العلاقة وثيقة - إذن - بين الفكر التنويري والسياسة ، فالإنسان - كما قلنا - حيوان سياسى عند بعض الفلاسفة ، ونجد هذه العلاقة طوال تاريخ الفلسفة من الماضى السحيق حتى الآن . نجد هذا في العديد من محاورات أفلاطون وخاصة محاوره الجمهورية ومحاوره القوانين . وأيضاً في كتاب « السياسة » لأرسطو ، فالسياسة عنده تعد داخلة في القسم العملى من الفلسفة . ونجد هذه العلاقة عند العديد من مفكرى العرب ، من بينهم إخوان الصفا ، وكانت لهم نزعتهم الشيعية ، كما نجد لها عند الفارابى في آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعند ابن سينا أيضاً ، كما نجد لها عند ابن باجة في محاولة تصوّر مدينة فاضلة ، وعند ابن رشد في فكره السياسى . ونجد ذلك أيضاً في فكر الخوارج وفكر الشيعة ، بل توجد جوانب سياسية عند العديد من الصوفية ، والذين عبروا عن التصوف الفلسفى . نجد ذلك أيضاً في العصر الحديث عند أمثال : « توماس هوبز » و « جون لوك » و « فولتير » و « برتراند رسل » ... إلى آخر هذه الأمثلة التي إن دلّتنا على شىء فإنما تدلنا على أن المفكر عادة لا يستطيع التغافل عن دراسة الأبعاد السياسية ، لأنه يعد كائناً اجتماعياً لا بد أن يتأثر بظروف مجتمعه الذى يعيش فيه ، ثم يحاول إيجاد صياغة جديدة للمجتمعات في مستقبل الزمان .

ونود أن نشير إلى أن الحرية لها صورها العديدة ، ومن بينها الحرية السياسية ،

والحرية الاقتصادية ، والحرية الاجتماعية ، والحرية الفكرية ... إلى آخر تلك الصور والنماذج للحرية .

نقول هذا ونؤكد على القول به ، لأننا نعتقد أن ما يضاد الحرية إنما هو الإرهاب . وغنى عن القول أنه توجد أسباب كثيرة لظهور الإرهاب ، فقد نجد أسباباً سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية لظهور الإرهاب ، بل قد نجد مجموعة من الفرق الإسلامية القديمة لأفكارها صلة بالإرهاب من قريب أو من بعيد .

والمشكلة أن الإرهاب يعتمد الآن في تمويله على أفراد تارة ، وعلى بنوك مشبوهة المصدر تارة أخرى ، ولا يمكن للإرهاب أن يستمر إلا بوجود تمويلات ضخمة لانتشاره ، وقد نجد أسباباً سياسية كما قلت لانتشاره ، كالحكم الديكتاتوري ، وأسباباً اقتصادية كالتفاوت الضخم في توزيع الثروات والدخول وانتشار البطالة . ومن هنا نجد الشيخ محمد عبده قد دخل في صراع مع بعض الأفراد من رجال الحكم ، ومع بعض المؤسسات أيضاً .

أما التساؤل عن مدى علاقة الإرهاب بالدين ، فإننى أقول بكل أمانة إن الدين لا علاقة له بالإرهاب ، بل السبب هو الفهم الخاطئ للدين من جانب أناس فقدوا القدرة على الفهم الصحيح للآيات القرآنية الكريمة . وإذا وجدنا أناساً يقولون بأفكار إرهابية ويتمسحون بالدين ، فإن سبب ذلك أنهم يريدون إقناع الناس بشرعية ما يقولون . وهذا يعد ضللاً كبيراً من جانبهم .

وإذا فهم كل فرد قواعد دينه فهماً سليماً كما أكد على ذلك الشيخ محمد عبده؛ فلن نجد علاقة بين الإرهاب والدين .

إن فكرة الحرية وارتباطها بالتنوير، ليست نبتاً شيطانياً لأساس له ولا جذور، بل إن لها جذورها الثقافية الفكرية ، وأبعادها الفلسفية كما أشار الشيخ محمد عبده . وليتنا نضع ذلك في اعتبارنا ، بحيث نبدأ بالجذور التاريخية من التأمل

والاستفادة من دروس الماضي ، وسواء كان الماضي يمثل الخير أم أنه يعد تعبيراً في بعض جوانبه عن الشر . ولتكن ثقافة الحرية والتنوير مشروعاً حضارياً لنا نحن أبناء الأمة العربية ، بل إن ثقافة الحرية يمكن أن تكون ركيزة رئيسية ومنهجاً واضح المعالم في دروسنا بالتعليم العام والتعليم الجامعي . هذا بالإضافة إلى ما تصدره مطابعنا من كتب ثقافية ، وفي كل وسائل إعلامنا .

ولنتأمل القيم التي نستطيع الاستفادة منها من وراء غرس ثقافة الحرية والتنوير في النفوس والعقول والوجدان . إنها تعني انتصار الخير على الشر ، بمعنى أننا إذا لم نسلح بثقافة النور والتنوير فإن مصيرنا إلى ضياع . إنها تعني نشر النور حتى ينحسر الظلام ، تماماً كما يكون الشروق مؤذناً ببداية يوم جديد . إنها تعني إحياء روح الوطن والمواطنة وما أكثر قيم الوطن والمواطنة . إنها تعني التمسك بتراب الأرض التي تعد ملكاً للجميع ، وكل ما يعد نبأً جميلاً مبدعاً . إنها تعني الانتماء ، بحيث يكون الويل كل الويل لمن لم يشعر بانتمائه إلى وطنه الذي يعد الحماية والأمان . إنها تعني التمسك بالثابت والأصيل والحقيقي ، مقابل الزائل والمتغير والزائف .

إن نشر ثقافة الحرية يعد معبراً عن كل ما هو مشرف ووضاء ، معبراً عن السمو والاعتزاز بالنفس والدفاع عن الكرامة ، الكرامة التي تميز فرداً عن فرد ، بحيث لا ننتظر من إنسان يضحى بكرامته ، عمل أى شيء نافع له ولوطنه ومجتمعه .

نقول ونكرر القول بأن بداية الطريق نحو ثقافة الحرية إنما يتمثل في البحث عن الأسس والجذور ، جذور ثقافة النور ، الجذور التي تستند إلى أبعاد كثيرة من بينها الأبعاد الجغرافية والتاريخية والثقافية والفكرية والفلسفية ، وذلك حتى تكون ثقافة حقيقية جادة وليست ثقافة هامشية هلامية .

ثقافة النور والحرية إذا كان لها أسسها وأبعادها المنطقية ، فإنها تكون معبرة عن المعقول ، ولن تكون معبرة عن اللامعقول إلا إذا استندت إلى إلغاء حق

الآخر . نقول هذا ونؤكد على القول به وذلك حتى نتعرف على أبعاد دور الشيخ الإمام في معركة الحرية والتحرُّر .

كم نبهنا مفكرون كبار من أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي إلى خطر السلطة الدينية ؛ لأن هذا الخلط بين الدين والسياسة سيجعل ثقافتنا السياسية في مجال الحرية تتراجع إلى الوراء، ستكون ثقافة محلية منعزلة عن التيارات العالمية ، ولا نستطيع أن نتعامل على أساسها مع دول العالم المتحضر . وكم تم تزوير العديد من الآراء السياسية عن طريق الفهم الخاطيء للدين .. وكم تم تكفير مفكرين كبار من منطلق ديني خاطيء في أساسه وجوهره .

ونستطيع أن نتصور نظاماً سياسياً عربياً جديداً إذا لم نأخذ من تراثنا إلا ما يؤدي إلى نهضتنا ، بحيث لا يكون معوقاً لمسيرتنا الإنسانية ، وهذا ما حاوله الشيخ محمد عبده ، نستطيع أن نسعى إلى الحرية إذا اعتقدنا أن النزعة الإنسانية التنويرية هي التي يجب أن تكون سائدة في مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا وكتابات مفكرينا . وكم ارتبط النور بالتقدم والسير إلى الأمام ، وارتبط الظلام بالتأخر والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية .

ولن يصبح لنا دورنا الحيوى النشط والرائد في العالم الذى نعيش فيه إلا إذا التزمنا بالإيمان بالحرية في مجتمعنا العربى ، وقلنا بأن المثقف السياسى وهو الكائن الاجتماعى ، لابد أن تكون له أفكاره المؤدية إلى سعادة وتقدم مجتمعه ، ولن يؤدي إلى تحقيق تقدم مجتمعنا العربى إلا بأن تكون الحرية هي الرائد ، وطريقنا هو طريق التحرُّر ، وخصائص ثقافتنا تتمثل في البعد الإنسانى أساساً . عن طريق هذا كله يمكن تحقيق نظام ثقافى عربى جديد ، نفاخر به بين دول العالم من مشرقها إلى مغربها ، بحيث نقول : هذه بضاعتنا الثقافية السياسية ، التى تتخطى حدود الزمان والمكان ، البضاعة السياسية في مجال الحرية ، وهى التى إذا كانت قد اتخذت بعض جذورها من الماضى إلا أنها لا تقف عنده بحيث يكون حالها كمن يبكى على الأطلال ، بل تركز على الحاضر وتنطلق منه إلى المستقبل .

نقول هذا ونحن نضع في اعتبارنا ضرورة استبعاد الشعارات البراقة الزائفة التي يزعم أصحابها أنهم يقدّمون لنا من خلالها مذاهب سياسية في حين أن الواقع الموضوعي يكشف لنا أن تلك المذاهب في وادٍ والفكر السياسي في وادٍ آخر . إنها مذاهب لا تستند إلى أساس فكري أيديولوجي ، ولا تقوم بنقد الواقع أو التعبير عنه تعبيراً صادقاً . ومن هنا كان فكرها فكراً سطحياً ، فكراً أجوف . انظروا إلى الفكر الأوربي السياسي على سبيل المثال وقارنوا بينه وبين ما نطلق عليه فكراً عربياً سياسياً على سبيل التجاوز ؛ ستجدوا الفرق الكبير بين الفكر الدقيق الذي يقوم على أرض صلبة وبين الفكر الهش المظلم ، ونقصد به الفكر العربي في كثير من جوانبه وأبعاده ومجالاته .

إننا نفتعل الكثير من المعارك ونطلق عليها معارك فكرية ، في الوقت الذي تدور حوله هذه المعارك على قضايا زائفة خيالية ، كما نتحدث عن الغول والعفريت . وأصبح من الأشياء الشائعة أن يتحدث كل واحد منا عن مشروع له حول الفكر العربي السياسي ، ثم نجد هذا المشروع خيالياً في خيال وليس له معالم محددة ، ولا يستند إلى أي نوع من أنواع الصدق .

ويقيني أنه لولا الهالات الإعلامية حول العديد من الكتب والمقالات لقلنا بصدق إننا لا نجد عندنا فكراً سياسياً في مجال الحرية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، بل نجد بضاعتنا الفكرية بضاعة فاسدة لا صلة لها بالواقع ، تماماً كمن يبحث عن قطة سوداء في الظلام ، أو مثل دون كيشوت الذي يحارب طواحين الهواء .

نجد هذا في الاتجاهات السلفية والاتجاهات الصوفية ، تلك الاتجاهات التي تطلب منا الرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية ، وتتغنى بالتراث ، وكأنها تبكي على الأطلال ، إذ كيف نتغافل عن أقدم ما في الإنسان وهو «الحرية» ؟ إن الحرية تمثل التقدم ، تمثل القوة الخلاقة المبدعة ، وهل يمكن الحديث عن

التنوير سواء في أوروبا أو في عالمنا العربى المعاصر دون القول بالركيزة الكبرى والأساس القوى البنیان : « الحرية » ؟

إن النزعة الإنسانية - تلك النزعة التى لا تسود إلا بفضل الحرية - لا يمكن تصوُّرها بعيدة عن قيم الحرية ، ولم نسمع عن سخرية من الحرية عند أمثال ديدرو ومونتسكيو وفولتير وجوته وجون لوك وبتنام وهيوم وبنيامين فرانكلين. لا نجد ابتعاداً عن الحرية عند رفاة الطهطاوى ومحمد عبده ولطفى السيد وطه حسين وحسين هيكل وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود .

أما الابتعاد عن الحرية بل والسخرية منها ، فإننا نجدها عند أصحاب الاتجاهات التى يطلق عليها أصحابها أنها اتجاهات سلفية تارة ، وأصولية تارة أخرى ، تلك الاتجاهات التى انتشرت للأسف الشديد في عالمنا العربى المعاصر ، وتمثل خير تمثيل ما نطلق عليه الصعود إلى الهاوية . وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

نعم إن هذه الاتجاهات تضرب بالحرية عرض الحائط وتركز جهدها على الإساءة إلى الحرية ، إلى التنوير كما ينبغي أن يكون ، فإذا أراد أصحاب هذه الاتجاهات إقامة بناء سياسى بمعزل عن الحرية فإننا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين .

إننى أعتقد اعتقاداً راسخاً أننا فى أمس الحاجة إلى البحث فى قضية الحرية ، إننا فى عصر لا يمكننا أن نتصور فيه الفكر بمعزل عن الحرية ، كما أن البحث فى قضية الحرية والتحرُّر لن يؤدى بنا إلى مجموعة من التصورات والنتائج الفكرية الدقيقة إلا إذا نظرنا إليها من خلال واقعنا المعاصر ، نظرة تتخطى الطابع المحلى الضيق وتجاوز الحدود الجغرافية لبلد أو آخر من بلدان العالم العربى ، بحيث نقيم الجسور والقنوات المشتركة بين الثقافة العربية فى سائر بلداننا من مشرقها إلى مغربها وفى بلدان العالم كله . وإذا لم نفعل ذلك فسنظل فى مكاننا دون أدنى تقدُّم ، بل سنرجع إلى الوراء ونكون نحن أبناء الأمة العربية من أكثر أفراد العالم جهلاً وضياعاً وتخلفاً .

هذه نقطة أجد من واجبي التنبيه إليها والتركيز عليها لأنها ستساعدنا على تقديم تصوّر لما أطلق عليه الرؤية المستقبلية للحرية والتحرّر .

إننا الآن في عصر تتصارع فيه القوى المختلفة ، وإذا لم نبادر بتحديد هويتنا السياسية العربية ، ونبادر أيضاً باتخاذ المواقف الصائبة ، فلن يكون لنا وجود في المستقبل ، لن تكون لنا حياة كما ينبغي أن تكون الحياة ، سنصبح في خبر كان إن صح هذا التعبير ، وسيأتي يوم علينا يتحدث فيه العالم عنا كما يتحدث عن الهنود الحمر أو كما يتحدث عن شعوب أصبحت منقرضة وزالت عن الوجود .

وغير خافٍ علينا أننا الآن في حالة من فقدان الوعي ، فقدان الاتزان ، أو مرحلة انعدام الوزن . إننا الآن في حالة غريبة من الغيبوبة والعالم يتحرك من حولنا حركة سريعة ، حركة بغير حدود ، إننا في الوقت الذي نصعد فيه إلى الهاوية ، ويكون الحوار بيننا حول الحرية أقرب إلى إثارة الخلافات اللفظية الشكلية ، بل أقرب إلى ثرثرة النساء ، نجد الدول المتقدمة ، وخاصة الدول الأوروبية تبادر إلى اتخاذ المواقف البناءة ، المواقف التي تعبّر عن نتائج عملية . ورغم اتفاقنا أو اختلافنا مع تلك المواقف التي تصدر عن الدول الغربية المتقدمة إلا أننا يجب أن نتعلم منهم القدرة على اتخاذ المواقف ، ولن يكون ذلك بإمكاننا إلا إذا أقمنا الجسور - كما قلت - بين أبناء الدول العربية كلها ، وأقمنا الحوار الفكري بين مثقفي الأمة العربية حول الحرية ، ومثقفى بقية بلدان العالم من مشرق الأرض إلى مغربها .

ويبدو لنا أن عالمنا العربي كانت مسيرته الفكرية التنويرية أكثر وضوحاً منذ قرن من الزمان ، أكثر وضوحاً وجديّة مما نراه الآن . وإلا كيف نبرر ليس ظهور الشيخ محمد عبده وأمثاله في مصر فحسب ، بل نجده عند عبد الرحمن الكواكبي في سوريا ، الذي توفي عام ١٩٠٢م أى أنها كانا متعاصرين .

فإذا كنا نجد عند عبد الرحمن الكواكبي رؤية تدور حول استلهام التراث في نقد الاستبداد ، فإننا نجد عند الشيخ محمد عبده - وكما سبق أن أشرنا - تركيزاً

على فكرة الحرية من خلال نقد السلطة الدينية . وسيجد القارئ لكتابنا هذا أكثر من إشارة إلى عبد الرحمن الكواكبي ..

لقد اهتم عبد الرحمن الكواكبي بالفكر السياسى كثيراً . إننا نجده - من خلال كتاباته التى تركها لنا - قد اهتم بكثير من القضايا ، ومن بين القضايا التى اهتم بها «القضايا السياسية» وذلك من خلال ربطها بقضايا أخرى ترتبط بها من قريب أو من بعيد .

نجد هذا فى الكتاين اللذين تركهما لنا وهما كتابه « أم القرى » و « طبائع الاستبداد ».

لقد اهتم الكواكبي وخاصة فى كتابه «طبائع الاستبداد» بتعريف الاستبداد وبيان علاقة الاستبداد بالدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية ^(١)، كما بين لنا كيفية التخلص من الاستبداد . إنه يعقد فصلاً لبيان الصلة بين الاستبداد وجانب من تلك الجوانب ثم ينتقل فى فصل آخر لكى يبين لنا صلة الاستبداد بجانب آخر ، وهكذا حتى يكشف عن علاقة الاستبداد بكل تلك الجوانب التى أشرنا إليها منذ قليل ، وذلك فى مجموعة من الفصول يرتبط كل فصل منها بالآخر . كل ذلك بلغة واضحة سهلة محددة .

يمكن القول بأن كتاب « طبائع الاستبداد » وأيضاً كتاب « أم القرى » كانا فى الأصل مجموعة من المقالات التى نشرت فى كثير من المجلات وأيضاً الجرائد اليومية .

وإذا تساءلنا عن الفرق بين هدف المؤلف من تأليفه للكتاب الأول «طبائع الاستبداد» وهدفه من تأليفه لكتاب « أم القرى » فإنه يمكن القول بأن الهدف كان منصباً أساساً فى كتابه « طبائع الاستبداد » على نقد الحكومات الإسلامية ، أما بالنسبة للكتاب الثانى « أم القرى » فإن الهدف تبلور حول نقد الشعوب الإسلامية .

(١) الفصول من الثانى حتى السابع .

فالهدف من الكتاب الأول كان مختلفاً - إذن - عن الهدف من الكتاب الثانى، وإن كان يجمع الكتابين إلى حد كبير وحدة موضوعية تتمثل فى سعى الكواكبي لتحديد مواطن الداء وسعيه أيضاً لتحديد أوجه العلاج . إنه لم يكن مجرد ناقد لأحوال الحكومات والشعوب الإسلامية ، بل أضاف إلى البعد النقدي بعداً موضوعياً يتمثل فى أنه حدّد أوجه الإصلاح ، أى : طرق العلاج ، تماماً كما نجد هذا المنهج فى بعض صوره عند مفكرنا الشيخ محمد عبده .

لقد اهتم الكواكبي اهتماماً كبيراً بالبحث فى الاستبداد ، إنه فى مقدمة كتابه «طبائع الاستبداد» يبين لنا أن المتكلم فى الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص ما هو الاستبداد وما سببه وما أعراضه وما سيره وما إنذاره وما دواؤه ولماذا يكون المستبد شديد الخوف ، وبماذا ينبغى استبدال الاستبداد.. وهكذا إلى آخر الأسئلة التى يثيرها الكواكبي فى مقدمة كتابه^(١) .

لقد كان الكواكبي حريصاً على أن يبين للرعية حقوقهم ، حريصاً على أن يبين واجبات الحاكم إزاء الرعية ، إنهم لابد أن يكونوا فى خدمة الرعية ، ويسهرون على رعاية مصالحهم .

ولا ينسى الكواكبي فى معرض حديثه عن الاستبداد وبيان أنواعه أن يبين لنا أن من أسوأ أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ، كما يلاحظ أن المستبدين يتولاهم مستبد ، والأحرار يتولاهم الأحرار .

نجد الكواكبي بعد هذا يبحث فى الصلة بين الاستبداد والدين ، وينادر فنقول إن الكواكبي كان حريصاً على أن يبين لنا أن الاستبداد لا يجيىء من الدين، بل من سوء فهم واستغلال من جانب البعض للدين . ولاشك أن هذا الرأى من الكواكبي يتضمن رؤية تنويرية ، وهذه الفكرة نجدها أيضاً عند الشيخ الإمام محمد عبده .

لقد بين لنا الكواكبي أن الدين الإسلامى قد جاء مؤسساً على الحكمة

(١) طبائع الاستبداد: ص ١٢ - ١٧ .

والعزم ، هادماً لكل صور الشرك ومحكماً لقواعد الحرية السياسية التي تتوسط بين الديمقراطية والأرستقراطية . لقد نزع كل سلطة دينية أو تغليبية تتحكم في النفوس أو في الأجسام ، ووضع شريعة حكم إجمالية صالحة لكل زمان ومكان . وفهم الخلفاء الراشدون معنى ومغزى القرآن الكريم النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه إماماً فأنشأوا حكومة قضت بالتساوى حتى بين أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها ، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة ، لكل منهم وظيفة شخصية ووظيفة عائلية ووظيفة قومية .

إن هذا الطراز السامى من الرياسة - فيما يرى الكواكبى - هو الطراز التنويرى المحمدى ، لم يخلفه فيه حقاً غير أبى بكر وعمر ، ثم أخذ يتناقص ، وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى اليوم ، وسيدوم بكاؤهم إلى يوم الدين إذا لم تنتبه إلى استعواضه بطراز سياسى شورى ، ذلك الطراز الذى اهتدت إليه بعض أمم الغرب ، تلك الأمم التى ربما يصح أن نقول عنها إنها قد استفادت من الإسلام أكثر مما استفاد المسلمون . وهذه الفكرة نجدها أيضاً عند الشيخ محمد عبده .

معنى هذا أن الكواكبى ينقد الأحوال التى وصلت إليها الشعوب الإسلامية والعربية في عصره ، ويبين لهم كيفية الإصلاح . والواقع أننا نجد أكثر المجددين والمصلحين الاجتماعيين السياسيين يلتقون إلى حد كبير عند تلك النقطة . يلتقون عند الكشف عن الأحوال السيئة التى وصلت إليها شعوبهم ، ثم يأخذون بعد ذلك في تحديد وسائل تلافي تلك الأحوال وبيان أوجه العلاج .

لا مجال إذن - فيما يرى الكواكبى - لرمى الدين الإسلامى بتأييد الاستبداد . إننا نجد الكثير من الآيات القرآنية التى فيها دعوة إلى الشورى .

نجد الكواكبى بعد ذلك يحاول الكشف عن مسلك بعض الفقهاء الذين

يفسرون هذه الآيات تفسيراً خاطئاً ، وذلك لأنهم يسعون إلى مصلحتهم الشخصية .

كما ينقد الكواكبي في الفصل الذي عقده بعنوان « الاستبداد والدين »^(١) مسلك بعض رجال الصوفية . والواقع أننا نجد المجذدين والمصلحين السياسيين لا يتعاطفون مع التصوف بصفة عامة . نجد هذا عند محمد عبده رغم أنه عاش فترة حياة التصوف ، ونجده أيضاً عند محمد إقبال .

ويبين لنا الكواكبي كمفكر ثوري مسلم أهمية الشورى والديمقراطية في الإسلام . ويمكن القول من جانبنا إن الكواكبي وغيره من المفكرين الذين يحملون الدعوة إلى التجديد ، إنما كانوا يدعون إلى ما نسميه بالثورة الداخلية لا الثورة الخارجية . ونعني بذلك أن الكواكبي كان حريصاً على أن يبين لنا أن ما نجده من استبداد في الأمم الإسلامية في عصره لا يرجع إلى الإسلام ، بل يرجع إلى سوء فهم للإسلام ، كما يرجع إلى الابتعاد عن أحكامه . فالعيب - إذن - ليس في الدين ولكن في التفسيرات الخاطئة من جانب البعض لهذا الدين وأحكامه . وهذه الفكرة نجد أكثر أبعادها عند الشيخ محمد عبده .

ويلاحظ أن الكواكبي يركز باستمرار على البعد الاجتماعي ، وذلك حين يشرح معاني الآيات القرآنية ، ولقد كان هذا متوقعاً من جانبه ، فهو كمصلح مجدد يهتم أساساً بالابتعاد عن التفسيرات اللفظية التي يقوم بها البعض ، متجاوزين بذلك عن القيم السلوكية الخلقة المبدعة . وهذا أيضاً نجده في تفسير الشيخ محمد عبده لبعض الآيات والسور القرآنية الكريمة .

وهذا إن دلنا على شيء فإننا يدلنا على أن الكواكبي في فكره السياسي كان حريصاً على الكشف عن سوء الأحوال في البلاد الإسلامية ، وذلك بالفرقة بين مجدها قديماً وتحللها بعد ذلك .

(١) الفصل الثاني : ص ٢٧ وما يليها .

إنه يكشف عن الداء ثم سرعان ما يكشف لنا عن أوجه وسبل العلاج. إنه يحاول تخطيط برنامج عملي لتفادي الضعف في الأمم الإسلامية والعربية ، بحيث تمضى شعوب الإسلام قدماً نحو التقدم والرقى ، وذلك على هدى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن دعوة الكواكبي إلى الإصلاح لا تقتصر على دولة دون أخرى من الدول الإسلامية والعربية ، بل إنه يدعو إلى إصلاح الأمة العربية بأسرها . وهذا أيضاً ما حاوله الشيخ محمد عبده .

ولو رجعنا إلى كتاب « أم القرى » فإننا نجده يتخيل انعقاد مؤتمر بمكة المكرمة من مندوبين يمثلون أقطار العالم الإسلامى وقد أخذوا يبحثون في أحوال هذا العالم الإسلامى ويكشفون عن الأسباب التى أدت إلى تدهوره ، كما يقدمون الأسباب الكفيلة بعلاج هذا التدهور . لقد لخص سكرتير هذا المؤتمر - وهو الكواكبي مؤلف كتاب « أم القرى » - ما دار بين المندوبين الذين يمثلون العالم الإسلامى .

لقد كشف الكواكبي عن كثير من الأسباب التى أدت إلى فتور وتدهور أحوال شعوب العالم الإسلامى ، ومن هذه الأسباب الاعتقاد بالجبر ، أى: بالعقيدة الجبرية وما تؤدى إليه هذه العقيدة من الإيمان بالتواكل والابتعاد عن طريق العمل ، طريق الكفاح ، أى : خوض غمار الحياة ، يضاف إلى ذلك انتشار البدع والخرافات التى لا تستند إلى العقل ولا إلى الفكر . وهذه الفكرة نجد مثيلاً لها عند الإمام محمد عبده .

وإذا كنا قد وقفنا وقفة طويلة عند الكواكبي ، فإن سبب ذلك أننا نجد تشابهاً بين أفكاره وأفكار الشيخ محمد عبده من جهة ، ونجد أيضاً اختلافاً بينهما ليس في طبيعة أفكار كل منهما ، بل في الحياة العملية الإصلاحية التى كانت أكثر بروزاً عند الشيخ محمد عبده .

لقد سعى الشيخ محمد عبده إلى التأكيد على فكرة الحرية ، وربط بينها وبين

الأبعاد العملية الإصلاحية في مجال تجديد الفكر الديني ، بحيث يحاول بعث الأمة العربية بعثاً جديداً . ونود أن نشير تأكيداً لما سبق أن أشرنا إليه في أكثر من موضع إلى أن الحديث عن الحرية والتحرُّر سيظل حديثاً ممتداً ما بقيت الحياة على وجه الأرض ، وأن الحديث عن الحرية والتحرُّر ليس مجرد مقولة نظرية ، بل إنه حديث ينتمى إلى أعماق أعماق الحياة والوجود والمصير ، إنه يغوص في باطن أرض العقل والوجدان ، بطن أرض التجربة .

نقول هذا من جانبنا، ولا مفر من القول به ، لأن تجارب الأمم طوال تاريخها قد أثبتت أن المقولات النظرية والفكر المجرد في مجال الحرية والتحرُّر لن يُقدَّر له البقاء إلا إذا استند إلى أرض الواقع . وراجعوا ما شتتم من الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل دول العالم من فجر التاريخ وحتى الآن ؛ ستجدوا أن الفكر الذي يستند إلى الواقع ويحاول التقدم به نحو صورة أفضل ، يعد أفضل بكثير من الفكر الهلامي، الفكر الذي يكون في وادٍ وحقائق الحياة والظروف في وادٍ آخر، ومن هنا وجدت اختلافات عديدة في تصورات الحرية والتحرُّر، وليس بمجرد الانتقال من زمان إلى زمان ، بل أيضاً باختلاف البلدان. إن الحرية لا تُفرض بقرار ، بل إنها تعد نوعاً من المعيشة والتلاؤم مع الواقع أولاً ، ثم تطوير هذا الواقع . ومن هنا لا تكون الحرية مجرد تبرير أو تفسير للواقع، بل هي تغيير للواقع . وهذا التغيير لا يكون بطبيعة الحال إلا بعد دراسة جذور الواقع ، ليس واقع الأمة العربية فحسب ، بل الأمة العربية في علاقاتها بكل دول العالم شرقاً وغرباً .

ولابد من الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى كما قلت، وكما بين لنا الشيخ محمد عبده ، بحيث لا يكون دورنا في مجال الحرية كدورنا المؤسف في مجالات أخرى اقتصرنا فيها على مجرد الشجب والاستنكار ، بحيث أصبحت بضاعتنا كلاماً في كلام . نعم سنصبح مجرد ظاهرة صوتية كلامية وذلك إذا سرنا - كما أشار إلى ذلك زكي نجيب محمود - في مجال «الكلامولوجيا» وباعدنا بيننا وبين «التكنولوجيا» .

نعم سرنا في مجال «الكلامولوجيا» حين اقتصر دورنا على مجرد الرفض وإعلان الحرب على الثقافة الأوروبية والديمقراطية الأوروبية والعولمة الثقافية ... إلى آخر صور الرفض للعديد من المجالات التي نعتبرها نحن معبرة عن الخير لأمتنا العربية ، كل الخير .

وقد تضمّن هذا الكتاب مجموعة من الفصول ، تدرس حياة محمد عبده الفكرية ومنهجه في تفسير القرآن الكريم ، وبعض آرائه في مجال علم الكلام والفلسفة ، وبيان أثره في العديد من المفكرين ، سواء كانوا عرباً أو كانوا من بلدان غير عربية ، بالإضافة إلى بعض البلدان الأوروبية .

لقد ركزنا على بيان أن الشيخ محمد عبده قد جمع بين الأبعاد النظرية والمجالات العملية الإصلاحية والاجتماعية .

ومن المعروف أن حياة الشيخ محمد عبده كانت - كما أشرنا أكثر من مرة - غاية في الثراء الفكري والنشاط الثقافي والاجتماعي . نجد هذا كله واضحاً غاية الوضوح طوال السنوات التي عاشها سواء في مصر أو في فرنسا حين عمل مع جمال الدين الأفغاني على تأسيس الصحيفة الأسبوعية المعروفة باسم «العروة الوثقى» والتي كان هدفها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والدفاع عن الشرقيين ، بالإضافة إلى محاربة التسلط والظلم والطغيان ، والدعوة إلى التخلص من الاحتلال الإنجليزي . وكانت هذه الصحيفة أول صحيفة عربية تظهر في أوروبا . لقد كان شيخنا يعمل دون ملل أو كلل ، وكانت له رؤيته النقدية وآراؤه الإصلاحية الجريئة .

نجد هذا واضحاً غاية الوضوح في العديد من الكتب والرسائل التي تركها لنا محمد عبده ، ومن بينها مقالاته في «العروة الوثقى» ، وحاشيته على شرح الدواني لكتاب «العقائد العضدية» للإيجي ، و «رسالة التوحيد» ، وتقرير في إصلاح المحاكم الشرعية ، و « الإسلام والرد على منتقديه » ، و « الإسلام

والنصرانية مع العلم والمدنية « ، وحديثه الفلسفى مع الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر ، وكتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » ، وتفسيره لسورة الفاتحة ، وتفسيره لجزء عم ، وتفسير المنار - الذى أكمله رشيد رضا - ودروس دارالإفتاء .

لهذا كله لم يكن غريباً أن يهتم العديد من المفكرين والمؤلفين سواء كانوا من العرب أو الأوربيين بالكتابة عن مفكرنا الكبير الشيخ الإمام محمد عبده ودراسة أفكاره ، ومن بين من اهتموا بالكتابة عنه ودراسة أفكاره : رشيد رضا ومصطفى عبد الرازق وعثمان أمين وأحمد لطفى السيد وعباس محمود العقاد ومحمد بخيت المطيعى ومنصور فهمى وحافظ إبراهيم وأحمد أمين ومحمد مصطفى المراغى وماكس هورتن وشارل آدمز وشاخت وجولد تسيهر وجوميه . وقد حاولنا فى الفصل الأخير من كتابنا هذا حصر أكثر هؤلاء .

لقد خاض محمد عبده الكثير من المعارك الفكرية ، وكان له من الأعداء مثل ما له من الأصدقاء ، وكان هذا شيئاً مألوفاً متوقعاً إذ أننا فى كل عصر وكل مكان إذا كنا نجد دعاة للنور ، فإننا نجد أيضاً خفافيش الفكر الذين يؤثرون الظلام ولا تقوى أبصارهم على مواجهة النور والضياء . وإذا كنا نجد دعاة للإصلاح والتجديد والتقدم إلى الأمام ، فإننا نجد أيضاً دعاة الجمود والانغلاق والرجعية والصعود إلى الهاوية . وإذا كنا نجد أناساً من المفكرين فى هذا العصر أو ذاك يطلبون منا التمسك بالعقل وجعله المرشد والدليل فى حياتنا والاعتصام بالعمل ، فإننا نجد بجوارهم أهل الخرافة والأسطورة والشعوذة واللاعقلانية .

كانت حياة محمد عبده غاية فى النشاط ، حيث كان كثير الانتقال من بلد إلى آخر من البلدان العربية والبلدان الأوربية ، كان لا يكل ولا يمل ، ينشر النور والضياء فى كل مكان عن طريق دروسه ومقابلاته والمناصب التى تولّاها . صحيح أننا قد نختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها ، لكن هذا الاختلاف - كما سبق أن أشرنا - هو من طبيعة التفلسف . ويكفى أن تكون

إيجابيات الرجل أكثر بكثير من سلبياته . ويكفى أنه كان باحثاً عن الحقيقة في كل مكان طوال الفترة التي عاشها .

وإذا كان محمد عبده قد ولد بمصر (في عام ١٨٤٩م) إلا أنه ملأ بقاع الأرض علماً ومعرفة ، سواء في أثناء حياته ، أو بعد مماته على سبيل الخصوص . وكان يوم وفاته حداداً عاماً في كل البلدان الإسلامية ، والتي أدركت مكانة الرجل علماً وخلقاً .

لقد دافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، وأدرك أن المشكلة ليست في الدين ، بل في الفهم الخاطئ للدين . نجد هذا حين نبَّهنا إلى أهمية تأويل النص الديني ، وربط مبادئ الدين بقضايا العصر والحضارة . كان - إذن - مجدداً ولم يكن مقلداً متمتاً . وكان صاحب نزعة تنويرية ، ولم يكن من دعاة الظلام والإرهاب الفكري .

أدرك بثاقب نظره أنه من الضروري والحيوي والجوهري فهم الدين فهماً صحيحاً ، وذلك حتى نتقدم للأمم ، وكأنه كان يدرك أن ذلك إنما يعد معبراً عن سنة الله في خلقه . لقد خلق الله عيوننا في مقدمة رؤوسنا ، ولم يخلقها في مؤخرة رؤوسنا . والله - كما يقول ابن سينا في مناجاته - فالحق ظلمة العدم بنور الوجود . إن هذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على ارتباط الوجود بالنور وارتباط الحياة بالضياء ، وفي نفس الوقت ارتباط العدم والفناء بالظلام . فإذا أردنا لأنفسنا الوجود ، فلا مفر من السعي بكل قوتنا نحو النور والضياء والتنوير . أما إذا أردنا لأنفسنا الفناء والعدم والهلاك فإننا سوف لا نسعى إلا إلى الظلام . فمرحباً - إذن - بالنور ، ولعنة الله على الظلام ودعاة الظلام .

كان محمد عبده خلال حياته - والتي كانت قصيرة نسبياً - حريصاً على أن يقدم لنا المثل والقُدوة والريادة . نشاطه الصحفي كان يدعو إلى الإعجاب . مؤلفاته نجد فيها مئات الأفكار البالغة الأهمية . الحكم والأمثال التي قالها تعبر

عن نظرة نقدية متعمقة ، وتعبّر عن روح تأملية رقيقة . لم يكن من خلال الوظائف التى تولّاها مجرد مقلد للآخرين ، بل كان ساعياً نحو التجديد ، وتحويل الأرض الخراب إلى حديقة مثمرة . صحيح أن الرجل لا يعد فيلسوفاً بأى حال من الأحوال ، ولكن هل وجدنا فى علمنا العربى منذ ثمانية قرون فيلسوفاً ؟ كلاً ثم كلاً . لقد انقطع وجود الفلاسفة منذ العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م أى : منذ وفاة العملاق عميد الفلسفة العقلانية فى بلداننا العربية ، ابن رشد ، فالشيخ محمد عبده يعد مفكراً ترك بصماته الواضحة والبارزة على مسار فكرنا العربى المعاصر ، ومن يحاول إنكار ذلك فوقته ضائع عبثاً .

صحيح أن الرجل لم يدافع عن الفكر الغربى الأوروبى بمثل ما نجده عند مفكرين كبار آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم ، ومن بينهم : أحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وزكى نجيب محمود . ولكن للشيخ محمد عبده العديد من الإيجابيات - كما قلنا - ويكفى أنه لم يقف عند سكون وظلام التقليد والنظر إلى أسفل ، بل أثر لنفسه وللأمة العربية حركة وحيوية النور والتنوير ، ونظر إلى أعلى ، مثله فى ذلك مثل المجدّد الذى يصعد إلى أعلى الشجرة ليلتقط ثمارها ، بحيث لا يلتقطها من أسفل الشجرة حتى لا يكون عالة على جهد الآخرين .

لقد قال محمد عبده بالعديد من الأفكار لكى تبقى وتظل بيننا على امتداد العصور والزمان ، ولم يقل ما قاله لكى يوضع فى زوايا النسيان والإهمال . ألا يكفيه فخراً الجراءة التى تميّز بها ؟ والمعارك التى خاضها ؟ ألا يكفيه فخراً أنه كان مدرّكاً للدور الحقيقى للمثقف ؟ وكيف أن المثقف لا يكون مقتصرأ على الدرس الأكاديمى ، بل لابد من أن يضيف إلى ذلك اهتماماً بالمشكلات الاجتماعية والفكرية التى تهم بلده من جهة ، وسائر البلدان من جهة أخرى .

تميّز الشيخ محمد عبده بالحس النقدى ، ولم يكن مجرد عارض لأفكار من سبقوه ، كعارض الأزياء ، بل كان يلجأ إلى التحليل والمقارنة والموازنة تعبيراً عن إيمانه بالنقد ودوره الخلاق فى صياغة وتشكيل العقل والوجدان . نجد هذا

في أكثر الكتب والرسائل التي تركها لنا ، والتي كان أكثرها في زمانه يعد فتحاً جديداً وطريقة للتقدم إلى الأمام وما يرتبط بالتقدم إلى الأمام من التمسك بالقوة والاعتزاز بطريق العقل الذي خلقه الله فينا . هذه سُنَّة الله في خلقه ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً .

وقد أشرنا في فصل من فصول هذا الكتاب إلى أن الشيخ محمد عبده قد ضاق بمناهج التعليم الأزهرية التي كانت سائدة في عصره في المدارس الأزهرية وجامع الأزهر ، وكان باستمرار تَوَّافاً إلى إصلاح تلك المناهج حتى يصبح الحال غير الحال ، حتى يكون الأثر في النفوس وفي العقول أيضاً مختلفاً جذرياً عن المناهج التي يصفها بالعقم ، والتي كانت موجودة في عصره وقت أن التحق بالتعليم الأزهرى .

وقد حاولنا في هذا الكتاب القيام بتأصيل لأفكاره ، بمعنى أننا حاولنا إرجاع أكثر آرائه إلى جذور وأصول سبقتة ؛ كالآراء الكلامية (المعتزلة والأشاعرة والماتريدية) وهذا لا يعد عيباً إذ أن هذا يعد شيئاً طبيعياً ومتوقفاً ، فمن منّا لم يتأثر بالسابقين ؟ ويكفى أن الشيخ محمد عبده بقدر ما كان متأثراً بالسابقين ، كان مؤثراً - كما أكدنا أكثر من مرة - في اللاحقين .

لم نكن - إذن - مكتفين بعرض آراء الشيخ محمد عبده كما نجد ذلك في العديد من الدراسات التي كتبت عنه ، بل أرجعنا الكثير من آرائه إلى أصولها الأولى .

ونرجو أن يكون هذا الكتاب تعبيراً عن المكانة الحقيقية للرجل الذي قدّم الكثير لمصر وسائر بلدان الوطن العربى . نقول هذا رغم اختلافنا معه في العديد من آرائه .

وإذا كان القدر قد شاء أن أكتب هذا التصدير في ذكرى مرور قرن من الزمان على وفاة مفكرنا الكبير الشيخ محمد عبده ، فإنه لا يخالجنى شك في أن روحه

التي صعدت إلى بارئها وخالقها ستترف الآن في سعادة حين تدرك أننا قد حاولنا رد الاعتبار إلى الرجل الذي ظلم في حياته إلى حد كبير ، كما تمت الإساءة إلى أفكاره بعد مماته من جانب أهل الجمود والتقليد وأنصار التخلف العقلي .. والله تعالى هو الموفق للسداد * .

عاطف العراقي

القاهرة - في الحادى عشر من شهر يوليو ٢٠٠٥م

(*) أجد واجباً على توجيه الشكر الجزيل ، الشكر بلا حدود ، لتلميذى وصديقى وزميلى الأستاذ الدكتور سيد عبد الستار ميهوب ، على ما قام به من دور في ترتيب فصول هذا الكتاب .